تفسير سورة الحج

الأستاذ الدكتور
السيد عبدالحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

تفسير

سورة الحج

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سورة الحج

بين يدى السورة

أ) **اسم السورة**: سميت بسورة الحج لذكر فريضة الحج على لسان إبراهيم الخليل بعد بناء الكعبة وإقامة البيت العتيق ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ (الحج: ٢٧)، فبلغ صوته أنحاء الأرض، وأسمع النطف فى الأصلاب، والأجنة فى الأرحام، فلبوا النداء: لبيك اللهم لبيك، «وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التى فى سورة البقرة وفى سورة آل عمران[١]»، وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ب) **فضائل سورة الحج**: فعن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين؟ قال: نعم، ومن لم يسجد هما فلا يقرأهما[٢]».

جـ) **سبب نزولها**: شأنها شأن السور المكية التى تناولت مسألة التوحيد، وشأن السور المدنية التى تناولت: شعيرة الحج وبعض التشريعات.

د) **مكيتها أو مدنيتها**: مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال، وآيات العقاب بالمثل، فهى مدنية قطعًا، فالمسلمون لم يؤذن لهم فى القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وبعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة.

هـ) عدد آياتها: ثمان وسبعون آية.

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٧٥٢

(٢) رواه أبو داود والدار قطنى والترمذى وقال: هذا حديث حسن. ليس إسناده بالقوى.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأمر بالتقوى والإيمان بالساعة وأهوالها

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾
(الحج: ١ - ٢)

إجمـــال المعنـــى

قولـه تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ (الحـج: ١)، خطـاب لجميـع البشر أى خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثـال أوامـره، واجتنـاب نواهيـه، وجمـاع القول فى التقوى هو: طاعة الله واجتناب محارمه بمعنى: أن لا يراك حيـث نهـاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ (الحج: ١)، تعليل للأمـر بـالتقوى، أى إن الزلزال الذى يكون بين يدى الساعة أمر عظيم، وخطب جسيم، لا يكاد يتصـور لعموله، فالزلزلة: شدة التحريك وهـى الزلزلـة المـذكورة فى قولـه تعـالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ (الزلزلة: ١). ورُوى أن هاتين الآيتين نزلتا لـيلًا فى غـزوة بنى المصطلق، فقرأهما رسول الله ﷺ فلـم يـر أكثـر باكيـا مـن تلـك الليلـة، فلـما أصبحوا لم يحطوا السرج عـن الـدواب، ولم يضربوا الخيـام، وقـت النـزول، ولم يطبخوا قدرًا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر(١).

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ (الحج: ٢)، فى ذلك اليوم العصيب الذى تشـاهدونه، فيـه تلك الزلزلة، وترون هول مطلعها، «وقيل: تكون مع النفخة الأولى. وقيل: تكون

(١) الكشاف: للزمخشرى ١/ ٧٩٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مع قيام الساعة حتى يتحرك الناس من قبورهم فى النفخة الثانية، ويحتمل أن تكون الزلزلة فى الآية عبارة أهوال يوم القيامة(١).

﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ (الحج: ٢)، تغفل وتذهل – مع الدهشة وشدة الفزع – كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها، وتضع الحامل ما فى بطنها بغير تمام.

وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون فى الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل «ومن قال تكون فى القيامة قال هذا وجه تعظيم الأمر، لا على حقيقته، كقولهم: أصابنا أمر يشيب فيه الوليد، يريدون شدته(٢).

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢)، تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢)، وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢)، استدراك لما دهاهم، أى ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم، وسلبت أفكارهم، فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- بدأت الآيات بنداء الناس جميعًا إلى تقوى الله: لأن التقوى هى أساس الخوف من الله، والباعث الأساسى إلى عبادته والتزام بطاعته، واجتناب معاصيه، وبدون التقوى لا يمكن لأحد النجاة من عذاب الله، ولا الفوز بجناته ورضوانه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٨.

(٢) معالم التنزيل للبغوى ١ / ٣٦٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- أسلوب الدعوة إلى الله ينبغى أن يكون بالترهيب كما يكون بالترغيب، فالآيات فى هذا الموضوع فيها ترهيب وتخويف من زلزلة الساعة، ووصفت الأهوال المصاحبة لها، وهو هول عنيف مرهوب، وذلك لأن «زلزل» مضعف زل.
- إذا زال عن قعره ضوعف لفظه لتضاعف معناه فإذا هو أشد رهبة من التهويل.
- من أسلوب الدعوة بالمس المشاهد على الغائب، كتصوير شدة الهول كحال زهول المرضعة عن رضيعها، وسقوط الحمل قبل أوانه، وحاله السكران بغير سكر، وإن كانت الأحوال لا تقاس بالحجم والضخامة، إلا أن لها دلالة فى النفوس، خاصة النفوس الجامحة التى لا تردع عن معصية، فيدفعها إلى الاستعداد والتقوى.
- الزلزلة تكون فى الدنيا، لأنها تباغت الناس وهم على حالها، والمشاهد المذكورة من رضاعة وحمل وسكر هى فى الدنيا، وأما نسبتها للآخرة فهو على سبيل التعظيم.
- لما أمر الله بالتقوى استعدادًا ليوم القيامة علل ذلك مرهِّبًا لهم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج: ١)، وهذا ما يوجب الحذر والتقوى.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المجادلة بغير علم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾
(الحج: ٣ - ٤)

سبب النزول

نزلت فى النضر بن الحارث وجماعته ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ (الحج: ٣)، قالوا: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وأنكروا البعث وإحياء من صار ترابًا(١).

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾ (الحج: 3)، من الناس من يخاصم وينازع فى قدرة الله وصفاته، ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ (الحج: ٣)، بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل كقولهم: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وصار ترابًا بغير علم يعلمه بل بجهل منه بما يقول(٢).

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ (الحج: 3)، يطيع ويقتدى بكل عات متمرد كرؤساء الكفر الصادين عن الحق ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ (الحج: ٤)، أى حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان، واتخذه وليا فأنه يقويه ويسوقه إلى عذاب جهنم.. وعبر بلفظ و(يهديه) على سبيل التهكم.

❁ ❁ ❁

(١) تفسير الجلالين، جمال الدين المحلي، والسيوطى جـ١ / ٤٣٣ .
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن، الطبرى ٩ / ١٠٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وهدايات

- نهت الآيات عن اتباع كل شيطان محتوم على من اتبعه الضلال، ويجعله يتطاول فيكفر بالله، ولا يستشعر تقواه، ولا يؤمن بالساعة فضلاً عن أن يستعدلها.
- والجدال فى ظل ذلك الهول الذى ينتظر الناس جميعا، والذى لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضاه، يبدو عجيبا من ذى عقل وقلب، سواء فى وجود الله تعالى، أو فى وحدانيته، أو فى قدرته، أو فى علمه، أو فى صفة من صفاته.
- هذا النوع من الجدال بعيد عن كل علم ومعرفة ويقين، فهذا الصنف من الناس يجادل فى الله بالعموي فهو حتم مقدور يقوده إلى عذاب السعير وأما الجدال بالأدلة لغرض الوصول إلى الحق المبنى على الدليل الساطع، والبرهان القاطع، والبينات الواضحة، العمدايات الظاهرة فلا حرج فيها بل قد تكون واجبة لإماطة اللثام عن الحق.
- نهت الآيات عن اتباع الشياطين – من الإنس والجن – لأنها توقع الإنسان فى غفلة عن التقوى، والاستعداد للآخرة.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأدلـــة على البعـــث

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ ﴾ (الحج: ٥ - ٧)

إجمـــال التفســـير

لما ذكر الله تعالى المجادلين فى قدرته، المنكرين للبعث والنشور، ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما فى الإنسان والثانى فى النبات فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ (الحج: ٥)، إن شككتم فى قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا فى أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم «آدم» من التراب، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم مرة ثانية، والذى قدر على إخراج النبات من الأرض، بعد موتها، قادر على أن يخرجكم من قبوركم. ﴿ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ (الحج: ٥).

ثم جعلنا نسله من المنى ﴿ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ﴾ (الحج: ٥)، وهو الدم الجامد الذى يشبه العلقة التى تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ ﴾ (الحج: ٥)، من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ، ﴿ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ (الحج: ٥)، واضحة الخلق مصورة وغير مصورة، **والمخلقة**: هى التى خلقه فيها الرأس واليدين والرجلين، **وغير المخلقة**: التى لم يخلق فيها شىء ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ ﴾ (الحج: ٥)، خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحكمتنا، فمن قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانيا، ولا تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة، وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظامًا قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل فى القدرة، وأهون فى القياس ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ (الحج: ٥)، ونثبت من الحمل فى أرحام الأمهات من أردنا أن نقرَّه فيها حتى يتكامل خلقه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج: ٥)، إلى زمن معين هو وقت الوضع ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: ٥)، ثم نخرج هذا الجنين طفلًا ضعيفًا فى بدنه وسمعه وبصره وحواسه ثم نعطيه القوة شيئًا فشيئًا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ (الحج: ٥)، كمال قوتكم وعقلكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ (الحج: ٥).

ومنكم من يموت فى ريعان شبابه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ (الحج: ٥)، ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم والضعف ووهن القوة والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ (الحج: ٥)، ليعود إلى ما كان عليه فى أوان الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ (الحج: ٥)، هذه هى الحجة الثانية على إمكان البعث، أى : وترى أيها المخاطب، أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها. «ذكر دلالة أقوى على البعث فقال فى الأول ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (الحج: ٥)، فخاطب جمعًا، وقال فى الثانى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ (الحج: ٥)، فخاطب واحدًا، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل، من حيث الاحتجاج على منكرى البعث[1]».

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: ٥)، فإذا أنزلنا عليها الماء، المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ

(١) القرطبى ١٢ / ٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ﴾ (الحج: ٥)، وأخرجت من كل صنف عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ (الحج: ٦)، ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما فى الكون من آثار قدرته شاهد بأن الله هو الحق ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ (الحج: ٦)، وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (الحج: ٦)، وبأنه قادر على ما أراد ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا ﴾ (الحج: ٧)، وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ (الحج: ٧)، يحيى الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رميما ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- ذكر الله فى هذه الآيات الكريمة من الأدلة الدامغة والبراهين الساطعة ما لا يستطيع أحد رَدَّها، ولا يملك العاقل إلا التسليم والإيمان كدلائل البعث من أطوار الحياة فى جنين الإنسان وحياة النبات، فلينظروا فى أنفسهم وفى الأرض من حولهم.
- وجه الدلالة فى هذه الآيات على البعث دلالة مزدوجة، فهى تدل على البعث من ناحية: أن القادر على خلق الإنسان، قادر على إعادتها «وهكذا نلتقى نواميس الخلق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر .
- لا ينبغى للمسلم أن يغفل عن أهمية الاستدلال بالأدلة الحية المشاهدة، لأن الكفار لا يؤمنون بالقرآن ولا السنة، فلابد من مناقشتهم عقليا، وهذا ما اهتم به القرآن، فلينتبه إليه الدعاة إلى الله.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بطلان معتقد المجادلين بغير علم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الحج: ٨ - ١٦)

تمهيـــــــد

بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى الدلائل المستقرة فى صلب الكون، وفى نظام الوجود فى الآيات السابقة ناسب ذكر من يجادلون فى الله بغير علم ولا دليل، وينبون عقيدتهم على معيار النفع والضر واليأس من نصر الله، وقد أشار إليهم سابقا بذكر بعض الأدلة على وجوده سبحانه، ثم عاد فى هذا المقطع ليصف حالهم ويبين بطلان معتقدهم.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجمـــال المعنـــى

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج: ٨)، نزلت فى أبى جهل أنذره الله بالخزى والهوان فى الدنيا فقتل يوم بدر، وقيل فى النضر بن الحارث، ومعظم المفسرين على هذا، يجادل فى وجود الله تعالى، أو أسمائه وصفاته، من غير علم صحيح. يهدى إلى المعرفة، ولا كتاب نير بيِّن الحجة، بل بمجرد الرأى والهوى.

«كرر هذا على وجه التوبيخ فكأنه يقول: هذه الأمثال فى غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل فى الله بغير دليل ولا برهان[1].

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ (الحج: 9)، معرضا عن الحق لاويًا عنقه كفرًا مستكبرًا عن الحق إذا دُعِىَ إليه، فهو كتصعير الخد وليضل عن سبيل الله ليصد الناس عن دين الله وشرعه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الحج: ٨)، فمن كبره إذا دعى إلى الله أعرض عن داعيه، ولوى عنقه عنه ولم يسمع ما يقال له استكبارًا.

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ (الحج: ٩)، له هوان وذل فى الحياة الدنيا ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (الحج: ٩)، ونصليه فى الآخرة النار المحرقة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ (الحج: ١٠)، بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (الحج: ١٠)، والله لا يظلم أحدًا من خلقه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ (الحج: ١١) سبب نزول هذه الآية:.. عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهى أرض وبيئة فإذا صح منها جسمه، ونتجت فرسه مُهرًا حسنًا، وولدت امرأته غلامًا رضى به، واطمأن إليه، وقال: ما أصبت منذ كنت على دينى هذا إلا خيرًا ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ (الحج: ١١)،

(١) تفسير الطبرى: الإمام الطبرى، ٩ / ١١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهى البلاء، أى وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرًّا وذلك الفتنة(١).

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ (الحج: ١١)، فإن ناله خير فى حياته من صحة ورخاء أقام على دينه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ (الحج: ١١)، وإن ناله شىء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ (الحج: ١١)، أضاع دنياه وآخرته فشقى الشقاوة الأبدية ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١)، ذلك هو الخسران الواضح الذى لا خسران مثله، ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين، وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذى يكون على طرف من الجيش فإن أحسّ بظفر أو غنيمة استقر، وإلا فرّ، ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ (الحج: ١٢)، يعبد الصنم الذى لا ينفع ولا يضر ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ (الحج: ١٢)، ذلك هو نهاية الضلال الذى لا ضلال بعده.. شبه حالهم بحال من أبعد فى التيه ضلالاً عن الطريق ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ (الحج: ١٣)، يعبد وثنًا أو صنمًا ضره فى الدنيا بالخزى والذل أسرع من نفعه الذى يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة وقيل: الآية على الفرض والتقدير: لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه، والآية: سبقت تسفيهًا وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ (الحج: ١٣)، بئس الناصر، وبئس القريب والصاحب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

(١) تفسير الإمام الطبرى: ٩ / ١١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (الحج: ١٤)، جزاءُ المؤمنين به: جنات النعيم تجرى من تحتها أنهار الخمر والعسل واللبن والماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (الحج: ١٤)، يثيب من يشاء، ويعذب من يشاء، لا مُعقب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله، فيتلقى جزاءه عدلًا، ولا ظُلْم فى الحساب.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (الحج: ١٥)، من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ فى الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ (الحج: ١٥)، فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ (الحج: ١٥)، هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ (الحج: ١٦)، ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوى على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ (الحج: ١٦)، وأن الله هو الهادى، لا هادى سواه، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- ذكرت الآيات الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه وتعالى، إلا أنه يوجد من يجادل فى الله: كالنضر بن الحارث حيث ذكرت الآية رقم (٢) أنه كان يريد إنكار البعث، وفى الآية (٨) أراد إنكار النبوّة ونزول القرآن، ووُصِفَ بأعرض عن القول الحق، ولوَّى عنقه تكبُّرًا ليضل عن سبيل الله، فحق عليه الهوان والذى فى الدنيا والآخرة، وهو عاقبة كل متكبر منكر للحق.. والجدال فى الله بعد تلك

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٣ / ٢٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدلائل يعدو غريبًا مستنكرًا غير مقبول، فكيف إذا كان جدالًا بغير علم لا يستند إلى دليل، ولا يقوم على حجة ومعرفة، ولا يستمد من كتاب ينير العقل والقلب، ويوضح الحق، ويهدى إلى اليقين، فيُعرض عن هذا بالكبْر ليضل عن سبيل الله، فلا يكتفى بأن يضل، إنما يحمل غيره على الضلال.

- الله سبحانه لا يدع المتكبرين، إنما يمهلهم أحيانًا ليكون الخزى أعظم، والتحقير أوقع، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع، والله ليس بظلام للعبيد.
- بينت الآيات المصير البائس لمن يعبد الله على حرف، فهم صنف من الناس يجعل العقيدة صفقة فى سوق التجارة: فإن أصابه خير اطمأن به، وقال: إن الإيمان خير.. وإن أصابه سوء عاد للكفر والضلال، وأما المؤمن فإنه يعبد ربه شاكرًا له فى الرخاء وصابرا على البلاء لا يفتتن فى دينه.
- من مسه الضر فى فتنة من الفتن، وفى ابتلاء من الابتلاءات فليثبت ولا يتزعز، وليزيد من ثقته برحمة ربه وعونه، وقدرته على كشف الضر عنه، فإن الله ناصره، كما وعد رسوله ﷺ بالنصر فنصره، وأما من يفقد ثقته فى نصر الله فى الدنيا والآخرة ويقنط من عون الله له حين تشتد المحنة فليفعل بنفسه ما يشاء، وليذهب بنفسه كل مذهب فما شىء من ذلك بمعدل ما به من البلاء.
- المؤمن التقى يصبر عند البلاء ويشكر وقت الرخاء.
- من الناس من يعبدون الله غير مطمئنة قلوبهم بالإيمان إن حظو بخير ثبتوا على إيمانهم، وإن أصابهم مكروه للكفر والضلال، ونسوا أهوال الساعة، فلا زاد لهم يدرؤون به عن أنفسهم العذاب.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفصل بين الأمم والاعتبار بهم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحج: ١٧ - ٢٤)

تمهيـــــد

بعد أن ذكر الله أحوال المشركين والمنافقين والمؤمنين بين أن الله يقضي بينهم جميعًا، ليبين المحق من المبطل، ومن يهديه، ومن لا يهتدي، وبين أنه ما كان لهم أن يختلفوا: لأن الكون كله خاضع لسلطانه طوعًا أو كرهًا.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (الحج: ١٧)، صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ (الحج: ١٧)، اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ (الحج: ١٧)، هم قوم يعبدون النجوم ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ (الحج: ١٧)، هم المنتسبون إلى عيسى عليه السلام ﴿ وَٱلْمَجُوسَ ﴾ (الحج: ١٧)، هم عبدة النيران ﴿ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾ (الحج: ١٧)، هم: العرب عبدة الأوثان ﴿ إِنَّ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الحج: ١٧)، يقض بين المؤمنين والفرق الضالة، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج: ١٧)، شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الحج: ١٨)، يسجد لعظمته كل شيء طوعًا وكرها، الملائكة في أقطار السموات، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي. ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ (الحج: ١٨)، وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع. «وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عُبَدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة، والغرض من الآية: بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجريها على وفق أمره وتدبيره[١].

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨)، ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ (الحج: ١٨)، وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ (الحج: ١٨)، من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج: ١٨)،يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويُغنى ويُفقر، ولا اعتراض لأحد عليه ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ ﴾ (الحج: ١٨)، يهنه الله ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ (الحج: ١٨)، من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الحج: ١٨)، يكرم ويهين، فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٣/ ٢٨٣.

(٢) تفسير البغوى ١ / ٣٧١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ﴾ (الحج: ١٩)، سبب نزول هذه الآية: عن قيس بن عباد قال سمعت أبا ذر يقسم بالله لنزلت هذه الآية فى ستة من قريش حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة هذان خصمان اختصموا فى ربهم إلى آخر الآية (١٩)[١]، وقيل المراد بالخصمين: الجنة والنار، قالت الجنة: خلقنى لرحمته، وقالت النار: خلقنى لعقوبته[٢]. والأول أظهر لذكره سبحانه ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين، والمعنى عام يشمل كل مؤمن وكل كافر، ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ (الحج: ١٩)، اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه، فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ (الحج: ١٩)، فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبى: شهبَت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى (قطعت) خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضى، لأن الموعود منه كالواقع المحقق ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ (الحج: ١٩)، يصب على رؤوسهم الماء الحار المغلى بنار جهنم ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ (الحج: ٢٠)، يذاب به ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء، مع الجلود.

قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها، وفى الحديث: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان» والغرض أن الحميم إذا صب على رؤوسهم كان تأثيره فى الباطن مثل تأثيره فى

(١) تفسير الثورى ١ / ٢٠٩ .

(٢) فتح القدير، الشوكانى، ٣ / ٦٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم[١]. ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (الحج: ٢١)، أى: ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ (الحج: ٢٢)، كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها، ردوا إلى أماكنهم فيها ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (الحج: ٢٢)، يقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذى كنتم به تكذبون، ولما ذكر سبحانه ما أعده للكفار من العذاب والنكال والدمار، ذكرنا أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (الحج: ٢٣)، يدخُل المؤمنون الصالحون فى الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ (الحج: ٢٣)، تلبسهم الملائكة فى الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ (الحج: ٢٣)، ويحلون باللؤلؤ كذلك إكرامًا من الله لهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣)، ولباسهم فى الجنة الحرير ولكنه أعلى وأرفع مما فى الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ (الحج: ٢٤)، أرشدوا إلى الكلام الطيب، والقول النافع إذ ليس فى الجنة لَغْوٌ ولا كذب، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (الحج: ٢٤)، إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- قسمت الآيات الناس إلى قسمين: مؤمن وكافر، فالمؤمن من استجاب لربه وسجد له مع سائر المخلوقات التى خلقها فى السماوات والأرض من جبال وشجر وشمس وقمر ودواب.. إلخ، ونعم الساجدين فلهم جنات الخلود،

(١) التفسير الكبير / الفخر الرازى ٣ / ٣٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والكافر شذ عن سنن الله ومنهجه وتمرد عليه، سجد لغيره فله عذاب السعير. وهذا ما يتفق مع عدل الله تعالى.

- رهَّب الله سبحانه الكافرين من عذابه الأليم بتصوير مشاهد وأهوال يوم البعث فهو يوم مزلزل عنيف رهيب حيث ذكر صورة العذاب للكافرين، فثيابهم من نار، يصب من فوق رؤوسهم الماء المغلى الحار، يذيب ما فى بطونهم وجلودهم، ولهم مقامع من حديد لا يستطيعون الخروج من حريقها ولهيبها، فأيُّ عاقل لا يعتبر ويفيء إلى ربه، اللهم إلا الذين كفروا.
- رغب الله المؤمنين، فوعدهم بدخول جنات تجرى من تحتها الأنهار ويليه من اللؤلؤ والحرير، لأن من يحذر من الترهيب، ويخشى الله ويتقه فمن حقه أن يطمع فى رحمة الله وكرمه، والله سبحانه لا يضيع أجر المحسنين.
- المتقون يكونون بين الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب، فيحرصون على السجود لله، وهو ما يدل على الطاعة والتقوى والخشية من الله، والاستعداد للقائه، والطمع فى رحمته.
- يستفاد من أهمية أسلوب الترغيب والترهيب فى الدعوة إلى الله تعالى.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الحج: ٢٥ - ٣٧)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تمهيـــــــد

لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وذكر ما دار بينهم من الخصومة فى دينه وعبادته، ناسب أن يذكر فرقًا بينهم، كعدم تعظيم الكافر لشعائر الله والصد عن المسجد الحرام، بينما المؤمن يعظم الله وشعائره لأنها من تقوى القلوب.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

عدد تعالى بعض جرائم الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الحج: ٢٥)، جحدوا بما جاء به محمد ﷺ ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه «لا يريد به حالاً ولا استقبالاً، وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم: فلان يعطى ويمنع، ولذلك عطفه على الماضى، وقيل هو حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾ (الحج: ٢٥)، وخبر (إن) محذوف دل عليه آخر الآية، أى معذبون[(١)]» وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية وحاولوا صد المؤمنين مرات عديدة ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ (الحج: ٢٥)، الذى جعلناه منسكا ومتعبدًا للناس جميعًا سواء فيه المقيم الحاضر والذى يأتيه من خارج البلاد ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ (الحج: ٢٥) ، ومن يرد فيه سوءًا أو ميلاً عن القصد أو يهم فيه معصية ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥)، نذقه أشد أنواع العذاب الموجع «قال ابن مسعود: لو أن رجلاً بعَدَن همَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابًا أليمًا. وقال مجاهد: تُضَاعف السيئات فيه كما تُضَاعف الحسنات[(٢)]».

---

(١) تفسير البيضاوى ١ / ١٢٢.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزى ٥ / ٤٢٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ (الحج: ٢٦)، واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمنا مكان البيت ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ (الحج: ٢٦)، أمرناه ببناء البيت العتيق خالصًا لله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦)، طهر بيتى من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة، والقائمون هم المصلون، ذكر تعالى من أركان الصلاة وأعظمها وهو القيام والركوع والسجود. ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ (الحج: ٢٧)، ونادِ فى الناس داعيا لهم لحج بيت الله العتيق «ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ (الحج: ٢٧)، قال: يا رب: وما يبلغ صوتى؟

قال: أذن وعلىّ الإبلاغ، فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار، فحجوا، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال، وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك[1]».

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ (الحج: ٢٧)، يأتوك شاة على أقدامهم أو ركبانا على كل جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: ٢٧)، أى تأتى الإبل الضامرة من كل طريق بعيد، ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ﴾ (الحج: ٢٧)، تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ (العاديات: ١)، فى خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت فى سبيل الله، ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج: ٢٨)، ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية.

---

(١) الجامع للقرطبى ١٢ / ٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«وإنما نكَّر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد لا توجد فى غيرها من العبادات[١]. ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ (الحج: ٢٨)، ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله فى أيام النحر شكرًا لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهى: الإبل والبقر والغنم والمعز ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ (الحج: ٢٨)، أى كلوا من لحوم الأضاحى ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ (الحج: ٢٨)، الذى أصابه بؤس وشدة. والفقير الذى أضعفه الإعسار، والبائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه، والفقير لا يكون كذلك ثيابه نقيه ووجهه غنى ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩)، ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذى أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير، وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩)، ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩)، ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذى به تمام التحليل، والعتيق: القديم الذى سمى به لأنه بيت وضع للناس ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ﴾ (الحج: ٣٠)، من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين، ويجتنب المعاصى والمحارم ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٣٠)، هى مالا يحل انتهاكه ﴿فَهُوَ﴾ (الحج: ٣٠)، أى تعظيمها ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (الحج: ٣٠)، فى الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ (الحج: ٣٠)، أكلا بعد الذبح ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (الحج: ٣٠)، تحريمه فى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ (المائدة: ٣)، فالاستثناء منقطع، ويجوز أن يكون متصلاً، والتحريم لما عرض من الموت ونحوه ﴿فَٱجْتَنِبُواْ

(١) التفسير الكبير، الرازى ٣ / ٤٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ (الحج: ٣٠)، من للبيان أى الذى هو الأوثان ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ (الحج: ٣٠)، أى الشرك بالله فى تلبيتكم أو شهادة الزور[1].

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ (الحج: ٣١)، أى مائلين للحق مسلمين لله غير مشركين به أحدًا ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ (الحج: ٣١)، تمثيل للمشرك فى ضلاله وهلاكه. أى ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١)، أو عصفت به الريح حتى هوت فى بعض المهالك البعيدة ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٣٢)، ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال، ومن يعظم أمور الدين، ومنها أعمالُ الحج والأضاحى والهدايا ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)، فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج: ٣٣)، لكم فى الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٣٣).

ثم مكان ذبحها فى الحرم بمكة أو منى، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ (المائدة: ٩٥)، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ (الحج: ٣٤)، شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكانا للذبح تقربا لله: وهو مشروع فى جميع الملل ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٣٤)، أمرنا هم عند الذبح أن يذكروا اسم الله، وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ (الحج: ٣٤)، شكرًا لله على ما أنعم به عليهم من

(١) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطى ١ / ٤٣٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم ﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ (الحج: ٢٨)، ليحضروا منافع لهم من أمر الدنيا والآخرة ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام يعنى: التسمية على ما ينحر فى يوم النحر وأيام التشريق (فكلو منها أمر إباحة «وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من نسائكهم فأمر المسلمون أن يأكلوا ﴿ وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ (الحج: ٢٨)، الشديد الفقر[١] ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الحج: ٣٤)، فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ﴾ (الحج: ٣٤)، فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ (الحج: ٣٤)، بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين، بجنات النعيم، تخبت له قلوبهم تخضع وتطمئن، «المخبت الخاضع المطمئن إلى ما دعى إليه[٢]» .

ووصفهم بأربع صفات فقال ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج: ٣٥)، إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره لإشراق أشعة جلاله عليهم فكأنهم بين يديه واقفون، ولجلاله وعظمته مشاهدون ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ (الحج: ٣٥)، يصبرون فى السراء والضراء على الأمراض والمصائب، والمحن وسائر المكاره ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (الحج: ٣٥)، الذين يؤوونها فى أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الحج: ٣٥)، ومن بعض الذى رزقناهم من فضلنا ينفقون فى وجوه الخيرات.

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج: ٣٦)، والإبل السمينة.

- سميت بدنا لبدانتها وضخامة أجسادها وأجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التى شرعها الله لعباده، وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته

(١) الوجيز، الواحدى ١ / ٧٣٢.
(٢) التبيان تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد المصرى ١ / ٣٠٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحرام، بل هى أفضل ما يُهدى «وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل أجل القربات، وأن يختارها حسانا سمانًا غالية الأثمان. روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنه فيها جمل لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب، وأن عمر رضى الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار. فإنها. أى: فإن تعظيمها من تقوى القلوب، أى من أفعال ذوى تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من، أو فإن تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب، وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى التى إذ اثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها فى سائر الأعضاء.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ (الحج: ٣٦)، نفع فى الدنيا وأجر فى الآخرة ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ (الحج: ٣٦)، اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ (الحج: ٣٦)، أى إذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ (الحج: ٣٦)، أى كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع المتعفف والمعتر السائل والأقرب أن القانع هو الراضى بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذى يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال[1]» ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الحج: ٣٦)، مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة أجسامها لكى تشكروا الله على إنعامه.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ (الحج: ٣٧)، لن يصل إليه تعالى شىء من لحومها ولا دمائها وسبب نزولها: «كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها.

فقال أصحاب الرسول ﷺ : نحن أحق أن نضمخ، فنزلت[2]» ﴿وَلَكِن

(١) التفسير الكبير، الرازى ٣ / ٤٥.
(٢) التفسير المنير: وهبة الزحيلى، ١٧ / ٢١٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ (الحج: ٣٧)، ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثال أوامره، وطلبكم رضوانه ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ (الحج: ٣٧)، كرره للتأكيد، أى: كذلك ذللها لكم، وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (الحج: ٣٧)، فى أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يقيم الكعبة على التوحيد، وأن يطهرهم من رجس الشرك لكى لا يكون معبودًا فى الأرض إلا الله وحده.
- يجب أن تكون حرية العبادة فى الحرم المكى لجميع الناس من أهل مكة وغيرهم، ولا يجوز لأحد أن يهم فيه بمعصية، فمن فعل قاصدًا عامدًا فله عذاب أليم.
- تبين الآيات مدى محاولات الكفار للصد عن سبيله، ويستنكر الصد عن المسجد الحرام، وليس المسجد الحرام فحسب بل المقصود كل أماكن العبادة خاصة المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال، ولا يجوز الاعتداء عليها وهذا ما ما أمر به الرسول ﷺ وأمراء الجيوش من الصحابة رضى الله عنهم، خاصة عند الغزو والفتوحات، سواء كانت فى بلاد المسلمين أم الكفار، ومن صدهم عن سبيل الله ، محاولتهم الآن هدم المسجد الأقصى، وبناء هيكل سليمان المزعوم مكان، ومنع المسلمين من الصلاة فيه.
- شرّع الله تقديم الذبائح فى جميع الشرائع والملل، وتقديم الذبائح لله دليل شكر له

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على نعمة الهداية؟ لذا يجب أن تكون الذبائح حاصة لوجه الله الكريم، وأن يذكر اسمه تعالى عند الذبح لمخالفة المشركين فى ذلك. فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان التى لا تخلق شيئًا. والله هو الخالق الرازق المستحق للطاعة.

- ذكرت الآيات بعض شعائر الحج وما وراءها من أجل تحريك مشاعر التقوى فى القلوب فالله لا يحتاج للهدى بل الناس يحتاجون لتنفيذ أوامر الله ليحظوا بالتقوى، وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى فى القلب، ينبغى أن يقدم الحاج أفضل ما يستطيع من الهدى، لأن الرسول ﷺ فعل ذلك.

- ركز الله على إطعام الفقراء القانع والمعتر، وفى هذا إشارة إلى أهمية التكافل الاجتماعى والتعاون فى المجتمع وهو من دروس وفوائد الحج.

- لا يجوز لمؤمن مستطيع يملك الزاد والراحلة، أن يؤخر الحج، فإن من مات فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيًّا.

- لما كان تعظيم شعائر الله وحرماته ومقدساته والدفاع عنها من التقوى البالغة بين الله أهمية تعظيم شعائره، فإنها من تقوى القلوب.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإذن بالقتال والدفاع عن المؤمنين

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج: ٣٨ - ٤٠)

تمهيـــــد

لما بين تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، ناسب فى هذا المقطع أن يبين: أنه يدافع عن المؤمنين، وذكر الحكمة من مشروعية القتال، ومنها الدفاع عن المقدسات، ومنع الصد عن سبيل الله والمساجد، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (الحج: ٣٨) ، ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار، وكفّ كيدهم عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ (الحج: ٣٨) ، إنه تعالى يبغض كل خائن للأمانة جاحد نعمة الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ ﴾ (الحج: ٣٩)، فيه محذوف تقديره: أُذن لهم فى القتال بسبب أنهم ظُلموا..

وورد فى سبب نزول هذه الآية أكثر من رواية وكلها بنفس المعنى منها: (أخرج ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير: أن أول آية أنزلت فى القتال حين ابتلى

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المسلمون بمكة وسطت بهم عشائرهم ليفتنوهم عن الإسلام وأخرجوهم من ديارهم وتظاهروا عليهم فأنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾[1] (الحج: ٣٩)، وهى أول آية أُذن فيها بالقتال. بعد ما نهى عنه فى أكثر من سبعين آية، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال، ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم فى طاعته لينالوا أجر الشهداء. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (الحج: ٤٠).

فمحمد ﷺ وأصحابه أخرجوا من مكة إلى المدينة ظلمًا وعدوانًا بغير سبب موجب للإخراج ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (الحج: ٤٠)، ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحدًا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ (الحج: ٤٠)، لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان، وتعطلت الشعائر، ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾ (الحج: ٤٠)، أى: لتهدمت معابد الرهبان، وكنائس النصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ (الحج: ٤٠)، أى كنائس اليهود ﴿وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠)، ومساجد المسلمين التى يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً، ومعنى الآية: أنه لولا كفّه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمانهم فهدموا مواضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بيعًا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون على أهل الأديان، وإنما ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ (الحج: ٤٠)، «قسم أى: والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)، أنه تعالى قادر

(١) الدر المنثور، السيوطى ٦ / ٥٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يُعجزه شيء، عزيز لا يُقهر ولا يغلب ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (الحج: ٤١)، هم المهاجرون والأنصار، والتابعون بإحسان، هم أمة محمد ﷺ ولله عاقبة الأمور، أى مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد ولما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم(١).

والمعنى: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطانا فى الأرض وتملكا واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (الحج: ٤١)، دعوا إلى الخير، ونهوا عن الشر ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١)، مرجع الأمور إلى حكمه وتقديره.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- هذه الآيات الكريمة هى أول آيات الإذن بالقتال، بعد أن أُمروا بالصبر فى مكة فلم يؤذن لهم بسبب قلة عددهم، وخشية الفتنة فى الدين، ولكن بعد أن قويت شوكة المسلمين، وتحولوا للمدينة، أصبح بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم ودينهم.

أهداف مشروعية القتال فى الإسلام أهداف سامية، لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين، ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا ربنا الله، وليس المقصود التدمير والفساد فى الأرض وظلم الناس وحملهم على الدخول فى الدين، فلا إكراه فى الدين، لذا كانت أهداف القتال فى الإسلام متميزة عن أهداف الدول الباغية والمعتدية، وإن رفعت شعارات الحضارة والإصلاح والتطوير والحرية.

---

(١) تفسير النسفى ٣ / ١٠٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الهدف الرئيس والأساس من نصر الله لعباده وتمكينهم فى الأرض أن يقيموا شرع الله، وفعل ما أمر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر، ولن يضيع الله رجلاً قط حفظ له دينه.

- خص المساجد دون غيرها من أماكن العبادة بقوله سبحانه: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠)، تعظيما لها وتشريفًا؛ لأنها أماكن العبادة الحقيقية، فلم يذكر هذا الوصف فى أماكن العبادات الأخرى مثل الكنائس والصوامع والدير... إلخ.
- وصف نفسه سبحانه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شىء، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، وهذا فيه تأكيد للمؤمنين أنه سبحانه قادر على نصرهم إذا نصروا دين الله مهما بلغت قوة الكفار.
- وعد الله المؤمنين بالنصر، والتمكين لهم فى الأرض، وتكليفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كل ذلك للقضاء على الشرك والدعوة للتوحيد وهذه الأوامر هى التى تمكن الموحدين من التقوى والاستعداد لزلزلة الساعة.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الاعتبار بهلاك الأمم السابقة

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الحج: ٤٢ - ٤٨)

تمهيد

فى الآيات السابقة وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين فى الأرض وناسب فى هذه الآيات ذكر نموذج من نصر الله لرسله السابقين على الأمم البائدة كعاد وثمود وغيرهم، وهو تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين ليصبروا على أذى الكفار، بأن الله مهلكهم كما أهلك الأمم الغابرة.

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ (الحج: ٤٢)، تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أى إن كذبك أهل مكة، فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كذبوا فصبروا إلى أن أهلك المكذبين فاقتديهم واصبر ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ (الحج: ٤٣ - ٤٤)،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكذلك كذب قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ (الحج: ٤٤)، مع وضوح آياته وعظم معجزاته ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ (الحج: ٤٤)، أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج: ٤٤)، استفهام تقريرى فكيف كان إنكارى عليهم بالعذاب، ألم يكن أليمًا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خرابًا؟

فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ (الحج: ٤٥)، كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ (الحج: ٤٥)، وهى مشركة كافرة ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ (الحج: ٤٥)، أى خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهى مخربة مهدمة ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ (الحج: ٤٥)، وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥)، أى وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خاليا بلا سكان، أليس فى ذلك عبرة للمعتبر؟

وقيل: المراد بالبئر: بئر بسفح جبل بحضر موت، وبالقصر، قصر مشرف علة تلة كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلها(١).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (الحج: ٤٦)، أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حلّ بهم من النكال والدمار!! وهَّلا عقلوا ما يجب أن يُعقل من الإيمان والتوحيد! ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الحج: ٤٦)، أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ

(١) تفسير أبى السعود ٦ / ١١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)، ليس العمى على الحقيقة عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وذكر الصدور للتأكيد، ونفى توهم المجاز ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ (الحج: ٤٧)، ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركين بالعذاب استهزاء، وإن ذلك واقع لا محاله، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، هو حليم لا يعمل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، إذًا يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟

ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ (الحج: ٤٨)، وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الحج: ٤٨)، ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإلَيَّ المرجع والمآب- قال أبو حيان: لما كان تعالى قد أمهل قريشًا حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيها على أن السابقين أمهلوا ثم أهلكوا، وأن قريشًا وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لابد من عذابهم فلا يفرحون بتأخير العذاب عنهم(١).

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- عرضت الآيات نماذج من مصارع المكذبين، ومشاهد القرى المدّمرة على الظالمين وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات، وتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من حق وإعراض وتطمئن المسلمين بالنصر والفوز!

(١) روح المعانى للألوسى ١٧ / ١٦٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- ذكرت الآيات أهمية وعى القلوب التى فى الصدور، فمن لا يفقه بقلبه ويستقيم فهو الأعمى الحقيقى لذا قال سبحانه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (الحج: ٤٦)، لفظ مبالغة كأنه ليس العمى عمى العين، وإنما العمى كل العمى عمى القلب، من أجل هذا كانت منافذ الإدراك مهمة من يوقظها بحقها فإنه يزداد تقربا من الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧).

- وعد الله بنصرة من يقع عليه البغى، وهو يدفع عنه العدوان، ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة فى صفحات الكون، وإلى جوارها يعرض صورة مزرية لضعف الآلة التى يركن إليها المشركون وهى لا تملك لهم نصرًا.

- نهت الآيات عن استعجال عذاب الله جل جلاله وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، لطول العذاب وبؤسه السفيه فما أجهل من يستعجل هذا.

- وكرر قوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ (الحج: ٤٨)، لأنه جلب معنى آخر، فذكر أولا القرى المُهْلَكة دون إملاء، بل يعقب التكذيب، ثم ثنى سبحانه بالممهلة ليلًا يفرح هؤلاء بتأخير العذاب عنهم، فوعد الله لا يتخلف.

- من لم يحافظ على التقوى، ويتبع منهج الإسلام، ويستعد لليوم الآخر، فسيكون مصيره كمصير الأمم السابقة من الهلاك فى الدنيا والآخرة، لأنه لم يمت على التوحيد.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إحكـــام الوحـــى للنبـــى ﷺ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الحج: ٤٩ - ٦٠)

تمهيـــــد

لما ذكر الله مصير الأمم الهالكة بين فى هذا المقطع سبب هلاكهم وهو عدم إتباعهم لدعوة رسلهم، مدح المؤمنين المصدّقين برسالة رسوله والمهاجرين لنصرة دين الله ورسوله، وبين ما أعدّ لهم من الجزاء، وذم الكافرين، وتوعدهم بسوء العقاب.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجمـــال المعنـــى

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحـج: ٤٩)، يوجـه الله تعـالى رسوله ليعلن للناس: إنما أرسلنى الله إليكم نذيرا لكم بين يـدى عـذاب شـديد، وليس إلىّ من حسابكم من شىء أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب إذا شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب، إن شاء أضل من كتب عليه الشـقاوة، وهو الفعال لما يشاء ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾[1] (الحج: ٤٩).

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحـج: ٥٠)، فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل لهم عند ربهم مغفـرة ورزق كريم فى جنات النعيم.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ (الحـج: ٥١)، كـذبوا بآياتنـا وسـعوا فى إبطالها مضـالين مشـاقين يريـدون إطفـاء نـور الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الحج: ٥١)، هم أصحاب النـار الشـديد عـذابها، ونكالهـا، شـبههم مـن حيـث الدوام فى جهـنم بالصـاحب لهـا. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ (الحج: ٥٢)، وما أرسلنا رسولًا ولا نبيا فحـدث نفسه بشىء، وتمنى لأمته الهداية، والإيمان إلا ألقى الشيطان الوساوس والعقـاب فى طريقه بتزيين الكفر لقومه، وإلقائه فى نفوسهم مخالفًا لأمـر الرسـول، وكـأن الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومـك لـك فهـذه سنة المرسلين ..

هذا أصح ما قيل فى تفسير الآية، وهو اختيار المحققين من المفسرين..

وأما قصة الغرانيق التى أولع بذكرها بعض المفسرين فهى باطلة مردودة..

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٣ / ٣٠٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهى أن الرسول ﷺ قرأ سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١)، بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠﴾ (النجم:19-20)، ألقى الشيطان على لسانه:«تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح بذلك المشركون، ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون..إلخ ذكر كثير من المفسرين قصة «الغرانيق» وهى روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح، ومما يدل على بطلان القصة قوله تعالى فى نفس السورة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ (النجم: ٣-٤)، فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذى يزعمونه سبحانك هذا بهتان عظيم[1].

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ (الحج: ٥٢)، يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ (الحج: ٥٢)، يثبت فى نفس الرسول آياته الدالة على الوحدانية والرسالة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (الحج: ٥٢)، مبالغ فى العلم، حكيم يضع الأشياء فى مواضعها وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى أن يتأولوا ما تشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا لما أشكل منه المجمل الذى تقتضيه الأصول المحكمة، والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة، ولا تعتريهم شبهة ولا تزول أقدامهم[2]،﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ (الحج: ٥٣)، ليجعل تلك الشبهة والوساوس التى يلقها الشيطان ﴿فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ (الحج: ٥٣)، فتنة للمنافقين الذين فى قلوبهم شك وارتياب ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ (الحج: ٥٣)، وفتنة للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبى جهل، والنضر، وعتبة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ (الحج: ٥٣)، وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفى عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بلفظ

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٠٨.
(٢) الكشاف: الزمخشرى ١/ ٨٠٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿بَعِيدٍ﴾ (الحج: ٥٣)، لأنه فى غاية الضلال والبعد عن الخير ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (الحج: ٥٤).

وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ (الحج: ٥٤)، يؤمنوا بهذا القرآن ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج: ٥٤)، تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من فى قلبه مرض ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٤)، مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم، ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ (الحج: ٥٥)، ولا يزال هؤلاء المشركون فى شك وريب من هذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ (الحج: ٥٥)، فجأة دون أن يشعروا ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٥)، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، وسمى عقيما لأنه لا يوجد بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوجد بعده يسمى عقيما.

والمراد به الساعة أيضا كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل. وقيل اليوم العقيم: هو يوم بدر. «فى قوله عذاب يوم عقيم يوم بدر الآية[1]» ووصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن، أو لأن الحرب المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قُتلوُا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الحج: ٥٦)، الملك يوم القيامة لله وحده لامنازع له فيه ولا مدافع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ (الحج: ٥٦)، يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (الحج: ٥٦)، فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم فى جنات الخلد. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

(١) تفسير الثورى، ٢١٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الحج: ٥٧)، والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزى مع الإهانة، والتحقير فى دار الجحيم.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٥٨)، تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ (الحج: ٥٨)، قتلوا فى الجهاد، أو ماتوا على فرشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ (الحج: ٥٨)، ليعطينهم نعيمًا خالدًا لا ينقطع أبدًا وهو يقيم الجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (الحج: ٥٨)، هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ (الحج: ٥٩)، ليدخلنهم مكانًا يرضونه وهو الجنة التى فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج: ٥٩)، عليم بدرجات العاملين، حليم عن عقابهم ﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ (الحج: ٦٠)، جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ (الحج: ٦٠) ثم اعتدى الظالم عليه ثانيا - لينصرن الله ذلك المظلوم «بمعنى المماثلة فى الجنس، فإن المشركين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة أوطانهم، فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن، ولا يستطيعون ذلك إلا بالجهاد؛ لأن المشركين كانوا أهل كثرة وكانوا مستعصمين ببلدهم فإلجاء من يمكن إلجاؤه إلى مفارقة وطنه، إما بالقتال فهو إخراج كامل أو بالأسر[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٠)، مبالغ فى العفو والغفران، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح، فإنه تعالى مع قدرته على الانتقام يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك.

❁ ❁ ❁

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١ / ٧٩٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وهدايات

- وظيفة الرسول ﷺ هى الإنذار بالنار، والتبشير بالجنة، قدّم الله الإنذار على البشارة.

فإن قيل: إنه ﷺ بشّر المؤمنين أولاً، وأنذر الكافرين ثانيًا فى هذه الآية فكان القياس أن يُقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الحج: ٤٩)، والجواب أن الكلام مسوق للمشركين، وهم الذين استعجلوا العذاب، وهذا من باب مراعاة الخطاب لمقتضى الحال، حبّذا يستفيد منه الدعاة.

- بين سبحانه أنه من جمع بين الإيمان والعمل الصالح فالله تعالى يجمع له المغفرة والرزق الكريم فى الجنة.
- تسلية جديدة للرسول ﷺ لما يردده الكفار على لسان الشياطين، فقد أصاب الرسل السابقين.
- العمو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم فى أمور الدنيا جائز لأنهم بشر، ولكن الله عصمهم من الخطأ فى تبليغ الرسالات، وهو فتنة، وهى تدل على إحكام الوحى.
- حذر الله من الساعة مرة ثانية، وهو دليل على خطورتها، وضرورة الاستعداد لها.
- ذكر الله فضل المجاهدين فى سبيله، ووعدهم بالرحمة والمغفرة والرزق الحسن ففيه دلالة على فضل الهجرة والبحث عن مكان يتمكن المسلم من طاعة ربه فيه.
- سمى اعتداء المشركين على المؤمنين عقابًا فى قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ (الحج: ٦٠)، لأن الذى دفع المعتدين إلى الاعتداء هو قصد العقاب على خروج المؤمنين عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم، وهو عقاب ظلم.
- التركيز على مهمة الرسول ﷺ منذرًا ومبشرًا، وعصمة الله له، من فتنة الشياطين ثم بيان فضل المهاجرين الذين نصروا الله ورسوله.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من دلائل قدرة الله تعالى

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ ﴾ (الحج: ٦١ - ٦٦)

تمهيد

لما ذكر تعالى ما دل على قدرته الباهرة فى الآيات السابقة من إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل، ونبه به على نعمه، أتبعها هنا بأنواع أخرى من الدلائل على قدرته وحكمته، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ (الحج: ٦١)، ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومن آيات قدرته إيلاج الليل فى والنهار، يدخل كلا منهما فى الآخر، بأن ينقص من الليل فيزيد فى النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس فى الصيف والشتاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ (الحج: ٦١)، سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ (الحج: ٦٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذلك بأن الله هو الإله الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ (الحج: ٦٢). وأن الذى يدعوه المشركون من الأصنام والأوثام هو الباطل الذى لا يقدر على شىء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ (الحج: ٦٢).

هو العالى على كل شىء، ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ (الحج: ٦٣)، استفهام تقريرى. أى ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر؟!

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (الحج: ٦٣)، فأصبحت الأرض منتعشة بقدرته خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ (الحج: ٦٣)، لاستحضار الصورة، وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن[1]» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج: ٦٣)، لطيف بأرزاق عباده، خبير بما فى قلوبهم من القنوط.

والغرض من الآية: إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور، فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الحج: ٦٤)، جميع ما فى الكون ملكه جل وعلا، خَلقًا وملكًا وتصرفًا، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الحج: ٦٤)، هو تعالى غنى عن الأشياء كلها لا يحتاج إلى أحد، وهو المحمود فى كل حال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الحج: ٦٥)، تذكير بنعمة أخرى.

أى ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ (الحج: ٦٥)، وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير فى البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ (الحج: ٦٥)، ويمسك بقدرته السماء كى لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ (الحج: ٦٥).

---

(١) التفسير الكبير الرازى. ٣ / ٦٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أى إذا شاء ذلك عند قيام الساعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥)، وذلك من لطفه بكم، ورحمته لكم، حيث هيأ لكم أسباب المعاش، فاشكروا آلاءه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ﴾ (الحج: ٦٦)، بعد أن كنتم عدمًا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ (الحج: ٦٦)، عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (الحج: ٦٦)، بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٦)، مبالغ فى الجحود لنعم الله، المراد بذلك الإنسان الكافر.

❁ ❁ ❁

استنبـــــاط

- ذكرت الآيات مزيدًا من أدلة قدرته تتمة لما فى الآيات السابقة، وفيها تأكيد على نصره للمؤمنين، وقدرته على إهلاك الكافرين، فهو يولج الليل فى النهار والنهار فى الليل، وينزل المطر من السماء فتصبح الأرض مخضرة، مقدرًا فيها أرزاق العباد، فهو لطيف بهم، ويمسك السماء أن تقع على الأرض فهو رحيم ورؤوف بهم، ثم بعد ذلك يجعلون له أندادًا، أفلا يعقلون؟! فتعسًا لهم، وهنيئًا للموحدين.
- على الرغم من ذكر الدلائل الباهرة القوية الدالة على قدرة الله وعظمته ومالها من رهبة إلا أنه وردت فيها إشارات تطمئن المؤمنين برحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥)، فليحمدوه ويوحدوه ولا يشركوا به، ولا ينكروا نعمه، لئلا ينطبق عليهم قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٦)، والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون لله أندادًا، وتعبدون معه غيره؟ وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف!!
- سبقت الآيات لإثبات أن الله واحد، ولا معبود سواه، فليحذر العاقل من عذابه، ومن أهواله الساعة، ويستعد للقائه.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بطلان شريعة ومنهاج المشركين

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ (الحج: ٦٧ - ٧٦)

تمهيد

في الآيات السابقة ذكر مزيدًا من دلائل قدرته سبحانه. وفي هذه الآيات يذكر مزيدًا من موقف الناس من تلك الدلائل بين مؤمن وكافر، فهو تأكيد للآيات السابقة بأن الله سبحانه يفصل بين المكذبين والصادقين فهو أعلم بما فيه يختلفون.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجمـــال المعنـــى

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ (الحج: ٦٧)، لكل نبى من الأنبياء وأمة من الأمم وضعنا لهم شريعة ومتعبدًا ومنهاجًا ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ٦٧)، هم عاملون به أى: بذلك الشرع.

وسبب نزولها: قال كفار خزاعة للمسلمين تأكلون من ذبائحكم التى تذبحونها، ولا تأكلون من الميتة يذبحها الله. فنزلت[1]».

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (الحج: ٦٧)، لا ينازعك أحد من المشركين شرّعتُ لك، ولأمتك، فقد كانت الشرائع فى كل عصر وزمان، وهو نهى يراد به النفى، أى لا ينبغى منازعة النبى ﷺ لأن الحق قد ظهر على يديه بحيث لا يسع النزاع فيه. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (الحج: ٦٧)، أى: ادع الناس إلى عبادة ربك، وإلى شريعته السمحة المطهرة، ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٦٧)، فإنك على طريق واضح مستقيم، موصل إلى جنات النعيم، ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحج: ٦٨)، وإن خاصموك بعد ظهور الحق، وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة، وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج: ٦٩)، الله يفصل فى الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون فى أمر الدين، فيعرفون حينئذ الحق من الباطل ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الحج: ٧٠)، الاستفهام تقريرى أى لقد علمت يا محمد أن الله أحاط علمه بما فى السماء والأرض فلا تحض عليه أعمالهم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ (الحج: ٧٠)، مسطر فى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج: ٧٠)، فحصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهل عليه، يسير لديه.

---

(١) التفسير المنير: وهبة الزحيلى ١٧/ ٢٦٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم بين سبحانه وتعالى ما يقوم عليه الكفار مع عظم نعمه، ووضوح دلائله فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٧١)، ويعبد الكفار غير الله تعالى أصنامًا لا تنفع ولا تسمح ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ (الحج: ٧١)، ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحى والشرع ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الحج: ٧١)، وما ليس عندهم به علم من جهة العقل، وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (الحج: ٧١)، ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ (الحج: ٧٢)، وإذا تليت على هؤلاء، المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ (الحج: ٧٢).

ترى فى وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ (الحج: ٧٢)، يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (الحج: ٧٢).

قل لهم: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (الحج: ٧٢)، وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الحج: ٧٢)، بئس الموضع الذى يصيرون إليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ (الحج: ٧٣)، يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ (الحج: ٧٣)، إن هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابه على ضعفها، وان اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة تعبد من دون الله؟!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ (الحج: ٧٣)، «لو اختطف الذباب وسلب شيئًا من الطيب الذى كايضمخون الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)، ضعف العابد الذى يطلب الخير من الصنم والمطلوب الذى هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف[1].

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الحج: ٧٤)، ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام – على حقارتها – شركاء للقوى العزيز، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٧٤)، هو تعالى قادر، لا يعجزه شىء، غالب لا يغلب، فكيف يسوون بين القوى العزيز، والعاجز الحقير؟!

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحى إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٧٥)، يسمع ما يقولون، ويرى ما يفعلون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (الحج: ٧٦)، يعلم ما قدَّموا وما أخروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الحج: ٧٦)، إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- تؤكد الآيات أن الله عز وجل جعل لكل أمة منهجًا ومسلكًا من الشرائع، والله جعل للمسلمين منسكا لا يجوز مخالفته، لأن الحق ظهر ورسالة الإسلام هى الخاتمة التى يجب اتباعها، والالتزام بها.
- الآيات تعلمنا الأدب، فإذا خاصم الناس بالباطل، فلنقل لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحج: ٦٨).

(١) زاد المسير: ابن الجوزى، ٥ / ٤١٥ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- إن عبدة الأوثان ليس لهم دليل سمعى نقلى أو عقلى، فهم يستمدون شرعهم من أهوائهم وأمزجتهم، والله جل وعلا محيط بأفعال وأقوال عباده يحاسبهم عليها يوم القيامة.
- ضرب الله مثلا لتقريب الأفهام بيّن فيه ضعف من يطلب أو يرجو غيره، بمخلوق ضعيف، وهو الذباب إذا أخذ شيئًا من طعامهم فإنهم لا يستطيعون طلبه، فهذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلا عن أن تخلق إنسانًا سميعًا بصيرًا. خص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته.

فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان، وأحقره، لا يقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله، ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابا مطاعين؟ وهذا من أقوى أقوى الحجة، وأوضح البرهان(١).

- الاختيار المطلق لله فى اصطفاء الملائكة والرسل من الناس فلا يحق الاعتراض.
- بعد أن تكلم عن الإلهيات والنبوات أتبعه بالشرائع والأحكام تؤكد الآيات هنا على ضرورة اتباع منهج الرسول ﷺ وعدم الخروج عنه؛ لأن طاعة غير الله لا فائدة منها، فغيره سبحانه وتعالى لا يستطيع أن يخلق ذبابًا، ولا استرداد ما أخذه الذباب، لذلك يجب أن يكون التوحيد الخالص لله وحده.

❁ ❁ ❁

(١) الجامع لتفسير القرآن: القرطبى، ١٢/ ٨٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أوامر الله للمؤمنين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٧ - ٧٨)

تمهيد

ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة ضعف المدعوين من دونه وأنهم لا يملكون شيئًا، وأن الطاعة له وحده، بين هنا بعض التكليفات كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، والاعتصام بالله، وقد سبقت الإشارة إليها فى بعض آيات السورة الكريمة.

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾ (الحج: ٧٧)، صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ (الحج: ٧٧)، أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ ﴾ (الحج: ٧٧)، افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات كصلة الأرحام، ومواساة الأيتام والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الحج: ٧٧)، لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ (الحج: ٧٨)، جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة. ﴿هُوَ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ (الحج: ٧٨)، هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع، وأكرم رسول ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

وما جعل عليكم فى هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هى الحنيفية السمحة ولهذا قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (الحج: ٧٨)، دينكم الذى لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه، لأنه الدين القيم ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ (الحج: ٧٨)، الله سماكم المسلمين فى الكتب المتقدمة، وفى هذا القرآن، ورضى لكم الإسلام دينا، «والمعنى أنه سبحانه فى سائر الكتب المتقدمة على القرآن، وفى القرآن أيضًا بيّن فضلكم على الأمم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه[1]».

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨)، ليشهد عليكم الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أن رسلهم قد بلّغتهم. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (الحج: ٧٨)، وإذ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة، فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة، ودفع الزكاة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ (الحج: ٧٨)، استمسكوا بحبله المتين، واتقوا الله، واستعينوا بالله فى جميع أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨)، فتمام الفضل والمنة أن يكون الله تعالى معينا لكم وناصركم فى جميع أموركم.

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- كلف الله المؤمنين بأوامر، لأن فيها فلاحهم وفوزهم إذ علق بها الفلاح بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وخصهما بالذكر، وأجمل سائر التكليفات بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ (الحج: ٧٧)، ليشمل كل الخيرات ويتنافس فيه المتنافسون.

(١) التفسير الكبير: للرازى: ٣/ ٧٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- الأمر بالسجود فيه دلالة على الخضوع الكامل لله فالمخلوقات جميعًا تسجد لله ماعدا أكثر الناس، لذلك دعاهم إلى السجود، مرة ثانية، وإن ورد بعض الخلاف فى هذه السجدة الثانية على النحو الآتى: «اختلف العلماء فى عدد سجود القرآن فروى عن أحمد روايتان:

إحداهما: أنها أربع عشرة سجدة وبه قال الشافعى وأبو حنيفة هى أربع عشرة فأخرج التى فى آخر الحج. **والثانية**: أنها خمس عشرة فزاد سجدة[1].

- قيد الجهاد بقوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ (الحج: ٧٨)، بذل كل طاقة وجهد، وغاية ما فى الوسع للدفاع عن العقيدة والعرض، والممتلكات، ورفع راية الإسلام خفَّاقة عالية، فعلى كل مسلم بذل ما يستطيع من نفسه أو ما له أو غير ذلك.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١)

- يذكر الله عباده برحمته حيث يسّر لهم فلم يكلفهم مالا يطيقون، ورفع عنهم كل حرج، فهو دين الحنيفية السمحة التى تركنا عليها رسول الله ﷺ والتى كان عليها إبراهيم ﷺ فهو سمانا مسلمين من قبل، فهلا استسلمنا، وانقدنا لله وحده، ولازمنا الشكر والثناء الحسن، وعبدناه حق عبادته.
- ميز الله هذه الأمة فأكرمها بأن جعلها شاهدة على الأمم يوم القيامة بأن رسلهم بلغتهم مع شهادة الرسول ﷺ وهذا له يقتضى الشكر والحمد.
- اللجوء إلى الله هو مناط التوحيد، ولا يجوز اللجؤ ولا الاعتصام إلا به وحده سبحانه وتعالى. فهو نعم المولى، ونعم النصير.
- الأوامر التى وردت فى هذه الآيات والتكليفات، وتقوى الله حق تقاته، والصلاة والزكاة والجهاد وطاعة الرسول ﷺ بها تتحقق الوحدانية، والتقوى والخشية والاستعداد للقاء الله.

❁ ❁ ❁

(١) زاد المسير: ابن الجوزى ٥٠ / ١٥٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب